

بسم الله الرحمن الرحيم

### قضية الاجتهاد

د . طه جابر العلواني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين  
وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين . أما بعد :

يسعدني أن أكون بينكم للحديث عن موضوع يعتبر من أهم الموضوعات  
التي تواجه العقل المسلم في عصرنا هذا بل هو من الموضوعات التي واجهت  
العقل المسلم قديما ولا تزال تواجهه حتى يومنا هذا . وقد تستمر كقضية من  
أبرز قضايا الفكر الإسلامي وتحديات العقل المسلم إلى وقت غير يسير ، تلك  
هي قضية الاجتهاد . سأحاول أن أتناول هذه القضية بوصفها قضية من أهم  
قضايا الفكر أبين منشأها وحقيقتها وعلاقتها بعلوم الأمة وعلاقتها بقضايا الفقه  
ولماذا كادت تنحصر في قضايا الفقه وتستمر في الدوران حوله إلى وقتنا هذا .

الرسول صلى الله عليه وسلم وتربية العقل العربي الجاهلي لتحمل أعباء

الدعوة : -

منذ أن بدأ نزول القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام ورسول الله صلى  
الله عليه وسلم يحاول تغيير المناخ العقلي والنفسي الذي كان عرب الجاهلية  
يعيشون فيه وكذلك معظم أقطار المعمورة آنذاك . فالطابع العقلي والنفسي  
الذي كان يعيش فيه العرب يومذاك وكثير من الأمم حولهم هو طابع التقليد<sup>(الم)</sup>  
تقليد الآباء ، تقليد الأجداد ، التمسك بالماضي ، الجمود عليه مقاومة  
التغيير ، رفض عوامله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حاول جاهدا منذ  
اللحظات الأولى أن يغير هذه العقلية ويوجد عقلية أخرى ونفسية أخرى لعلمه  
عليه الصلاة والسلام أن عقلية تقليد الآباء والتشبث بما عليه الأقدمون ورفض

التغيير ومقاومته عقلية لا تصلح لأن تستقبل الإسلام ولا تصلح لأن تتعامل مع قضاياها . وبدأت عملية بناء العقلية الجديدة التي يحتاجها الإسلام ويريدها بنزول قول الله سبحانه وتعالى «إقرأ باسم ربك الذي خلق» عقلية القراءة ، عقلية ذات منهجية خاصة تلك هي منهجية القراءة . القراءة للكتاب المنزلة المسطور والقراءة للكون ودراسة أحواله وما فيه ، تلك القراءتان ... قراءة الكتاب وقراءة الكون هي المنهجية الأساسية ... أو القاعدة الأساسية في منهجية هذه الأمة ... فنزول «إقرأ» وما تلى ذلك كله يدخل ضمن إطار تغيير العقلية القديمة ورفضها ومحاولة بناء العقلية القائمة على منهجية القراءة لا منهجية التقليد .

ومنذ ذلك الوقت أصبح واضحاً لدى الإنسان المسلم أن للمعرفة شروطها وللمعرفة مصادرها وأنه ليس له أن يتلقى أية معلومة من غير مصدرها وليس له أن يتقبل أية معرفة من غير دليل عليها . فبنى العقل العلمي كما نعتبر عنه في يومنا هذا . العقل الذي يرفض الأسطورة والخرافة ، العقل الذي إذا عرضت عليه رواية طالب بالصحة وإذا عرضت عليه دعوى طالب بالدليل وإذا عرض عليه أمر من الأمور طالب بالشهادة عليه لإثباته ، فمُنذ ذلك الوقت من يوم نزول «إقرأ» وابتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته وذلك العقل يُبنى شيئاً فشيئاً ويُربى على قراءة القرآن وعلى قراءة الوجود ، ففي الوقت الذي يقول له «إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق» «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا» «قل سيروا في الأرض فانظروا» ، عملية السير في الأرض والنظر فيها والتدبر في هذا الكون وفي هذا الوجود كانت تسير جنباً إلى جنب ، مع عملية قراءة القرآن في سبيل تربية ذلك العقل المطلوب لتحمل رسالة الإسلام ومواجهة أعباء الجاهلية بالتغيير . ولما تهيأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بدأ بإرساء قواعد النظرة الكلية للإنسان ، للكون ، للحياة ، فغير مفهوم الإنسان تغييراً كاملاً عن ما كان عليه في الجاهلية ، وغير هذا المفهوم في سائر أنحاء الأرض ، فالنظر إلى الإنسان وفهم الإنسان كما كان سائداً عند العرب وعند من يجاورهم أصبح غيره على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الحال بالنسبة لهذا الكون ، هذا الإنسان الذي كان ربما يقدس كوكباً من الكواكب أو يعبد نهراً من الأنهار أو يقدس حيواناً من

الحيوانات أو حجرا من الأحجار ، هذا الأمر كله انتهى ، وأصبحت علاقة الإنسان بالكون علاقة المسخر بالمسخر له ، ألا وهو الإنسان . كذلك الحال بالنسبة للحياة والوقت والزمن إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وأصبح هذا الزمان ظرفا لعملية التغيير ، وأصبح مفهوم الحياة مفهوما آخر ، فتلك الحياة العابثة اللاهية التي كان يعيشها عرب الجاهلية ومن حولهم من فرس ورومان وغيرهم ، سواء من أولئك الذين يدينون بأديان سماوية أو بأديان وضعية ابتدعوها ، كل تلك الأمور قد تغيرت وأعيدت صياغة قضايا العقيدة وقضايا الإيمان لبناء هذه العقلية إذ فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك كله وأرسى دعائم العقيدة وبنى النظرة الكلية للكون والإنسان والحياة ، اتجه صوب شؤون الأمور الفرعية والحياة الأخرى ليعلم الإنسان كيف يستخدم عقله وكيف يستخدم قدرته وفكره في مجالات تنظيم الحياة وإخضاعها للحاكمية المطلقة الوحيدة ، حاكمية الله سبحانه وتعالى . فكانت عملية الاجتهاد .

### الاجتهاد عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته :

بطبيعة الحال ، هذا الذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ضرورة حتمية ما كان يمكن بناء عقيدة جديدة ولا كان يمكن بناء حياة جديدة أو تصور جديد للكون والإنسان والحياة قبل أن تحدث هذه القطيعة المعرفية كما يسمونها اليوم أو القطيعة الأبيستمولوجية بين معارف الجاهلية وتصوراتها وبين ما أراد الإسلام بناؤه من معارف وتصورات . وإذ بُني المنطلق الفلسفي الذي هو هذا التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة وأرسيت دعائم الإطار المرجعي للإنسان المسلم وبنيت قواعد ~~رؤيته~~ رؤيته للكون والإنسان والحياة ، بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ تلك اللحظات يدرّب أصحابه ويربيهم على عقلية الاجتهاد والتعامل مع سائر القضايا التي تواجههم بهذه العقلية التي تم بناء قواعدها وإرساء دعائمها . فكان كثيرا ما يدعو بعض أصحابه لممارسة الاجتهاد بمحض منة وكثيرا ما كان يفعل عليه الصلاة والسلام نفسه ذلك ويجتهد ، ويقدم بذلك النموذج لأصحابه في كيفية التعامل مع الأشياء دون عملية جمود على واقع معين أو تشبث بموقف معين ، فعرف الناس منهجية

في النقل ومنهجية في العقل ومنهجية في التعامل مع الأشياء . وظهرت منهجية الإنسان المسلم في التعامل مع الحياة . فهناك رفض مطلق لما كان عليه الآباء والأجداد والأسلاف فيما يتعلق بالعقيدة . فالعقيدة مصدرها كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ورفض كذلك فيما يتعلق بالأحكام أي حكم يتشاهه الإنسان عن ميراث ورثه أو عن هوى استشارة ليكون مرجع ذلك أيضا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأخذ يعود الناس أن ينطلقوا من القراءتين في مجالات الحياة بعد أن بنى لهم ذلك كله يمارسون حياتهم من هذا المنطلق ، لهم إطارهم المرجعي من عقيدتهم ومنطلقهم الفلسفي القائم على تلك العقيدة ومراجعهم وأدلة أحكامهم من الكتاب والسنة وينطلقون على بركة الله يستعملون عقولهم في قضايا الأحكام وتنظيم العلاقات إضافة إلى سائر قضايا الوجود والوجود الإنساني والممارسات الحياتية التي عليه أن يقوم بها في هذه الحياة .

ومن أجل أن يطلق لعقول أصحابه العنان في هذا الأمر وأن لا يسمح بأية قيود تحول دون اكتمال بناء هذه العقلية ربما كان يتقبل دون إنكار كثيرا من الاجتهادات الساذجة جدا التي يقوم بها بعض أصحابه عن سذاجة وبساطة انطلاقا من فهمهم الجديد وانطلاقا من العقلية الجديدة التي بنيت . فحين يأتي عدي بن حاتم الطائي وهو بدوي كان قد أسلم حديثا فيقرأ قول الله سبحانه وتعالى : «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» فيأتي بعقالين «حبلين» ، حبل أسود وحبل أبيض ، وينتظر داخل خيمته ويعيد النظر ساعة بعد أخرى في هذين الحبلين ليتبين الأبيض من الأسود من الفجر وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما فعل لم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تبسم وقال لعدي : إنك لعريض الوسادة وهو تعبير عربي لطيف فيه معنى الغمز بقلة الذكاء ، أو بأنه لم يبذل جهده الذهني المناسب في هذه المسألة . وحينما تمرغ عمار بن ياسر عندما قرأ قول الله تعالى : «فتيمموا صعيدا طيبا» وتوهم أن التيمم بضريتين ضربة للوجه وضربة لليدين بديل عن الوضوء ومادام التيمم بديلا عن الوضوء ، إذا لا يغني عن الجنابة إلا أن يتمرغ كلية بالتراب ، فذهب وقد أصابته جنابة - فأخذ يدحرج نفسه في التراب ، لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لم يقل له لا تجتهد مرة

أخرى أنت لا تفهم أين أنت من الاجتهاد وإنما ضحك عليه الصلاة والسلام وتبسم وقال : إنك لعريض القفى أو لعريض الوسادة ، كما قال لصاحبه ، إنما كان يكفيك ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين . ولكن حينما وقعت مخالفة منهجية في أولئك الذين يسمون وعرفوا في تاريخنا الفقهي بأصحاب الشجة أنه جرح أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جرحا غائرا وأصابته جنابة في ذلك فسأل من حوله من الصحابة فكان معظمهم ليسوا من القراء وليسوا على جانب من الفقه مناسب فأشاروا عليه بوجوب الاغتسال لأن الله سبحانه وتعالى أمر الجنب بالاغتسال دون أن يخصص ولم يكونوا يعرفون التخصيص آنذاك . وتسم جرح الرجل ومات وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال : «قتلهم الله إذ قتلوه ، أفلا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال» فكانه أراد أن يستكمل حلقات المنهجية في هذا الأمر وأراد أن يبين أنه مهما بنى العقل العلمي فالعقل العلمي لا يمكن أن يصبح حقيقة واقعة لدى عامة الناس بإطلاق ، ولكن سيبقى بعض الناس لا يستطيعون ممارسة هذا وبالتالي فلهؤلاء عملية السؤال ومنهجيتهم وجوب سؤال من يعلم ، ولا يجوز لهم أن يمارسوا ذلك دون علم من منطلق الجهل ومن منطلق عدم المعرفة ، فحلقات المنهجية كثيرة . هناك السؤال هناك الرواية ، هناك الاستدلال ، هناك التصحيح بكل أنواعه . كل ذلك ليتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من بناء هذه العقلية المتألقة القادرة المعطاءة التي تستطيع أن تواجه كافة شؤون وشجون الحياة .

#### الاجتهاد عند الصدر الأول : «الخلافة الراشدة» : -

كان الصدر الأول قد استوعب درس رسول الله صلى الله عليه وسلم كاملا فسار الخلفاء الراشدون سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر وكان الناس في سعة . جاء أبا بكر الصديق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قراء الصحابة والقادرون على ممارسة الاجتهاد العام بكل جوانبه لا يجاوزون مائة وستين صحابيا وكان عامة المسلمين آنذاك يدعى الناس إلى المسجد عندما يأتي أي أمر من الأمور التي تحتاج إلى النظر ويدلي كل من هؤلاء برأيه ، وقراء الصحابة يسددون ويوجهون هذا الاجتهاد حتى يصل الخليفة إلى ما يرى أنه الأصلح للمسلمين ، فيأخذ به ويتحول إلى سياسة أو إجراء ، ولكن هذا

لم يكن يعني أن بقية الآراء تطرح أو تحجب أو تمنع وإنما تبقى كآراء إسلامية ومقالات إسلامية وآراء فقهية لها قيمتها ولكنها في الإطار الأكاديمي فإذا بدى للخليفة بعد ذلك أية آثار سيئة للاجتهاد الذي سار عليه أو نفذه ربما يستطيع أن يرجع إلى ذلك الرصيد الكثير و الوافر من آراء علماء الأمة وقرائها لكي يصطفي منه وضعا آخر . فكان معروفا كما هو الحال في أيامنا هذه للبحث الأكاديمي مجالاته ويستطيع الفقهاء والقراء والمجتهدون أن يمارسوا في إطار البحث الأكاديمي ما يشاؤون . ولكن في مجال السلطة التنفيذية نجد أن هذه السلطة تقيدها ملابسات وظروف مختلفة ، فهي تختار من بين تلك الآراء ما تختار دون أن تسبب أي إلغاء لذلك الأمر . كان هذا الأمر والقيادتان السياسية والفقهية مجتمعتان في أشخاص موحدتين هم الخلفاء الراشدون ، وكان أبو بكر رضي الله عنه فقيها مجتهدا وكان حاكما وسياسيا في الوقت نفسه ، كان عمر بن الخطاب فقيها مجتهدا وكان خليفة وحاكما في الوقت ذاته ، كان عثمان كذلك ، كان علي مثله . ولكن حين ما انتهى هذا الجيل ، وانقرضت الخلافة الراشدة جاء حكام آخرون لا يتصفون بنفس المواصفات ولا يحملون نفس المؤهلات فتغير الحال .

### الفصام بين القيادة الفقهية الفكرية

#### والقيادة السياسية بعد الخلافة الراشدة :

إذا اعتبرنا الصدر الأول متمثلا بالخلافة الراشدة في مفهومها الذي ذكرنا ، المفهوم الذي يجتمع فيه الفقه مع القيادة ، نجد هذا متمثلا تمام التمثيل في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وفي ست سنوات من خلافة عثمان رضي الله عنه كذلك تعتبر السنوات التي أعقبت ذلك إضافة إلى سنوات خلافة الإمام علي حتى عام ما سمي أو عرف بعام الجماعة في تاريخنا وهو العام الذي تنازل فيه الحسن إلى معاوية بن أبي سفيان وأصبح معاوية الحاكم أو الخليفة الجديد للمسلمين ، نستطيع أن نعتبر الفترة الأولى تمثل الفترة أو النموذج الذي ذكرناه ، نستطيع أن نعتبر الفترة من ما بعد السنة السادسة من خلافة عثمان حتى عام الجماعة هي فترة الحرب الأهلية والاضطرابات التي مر

بها المسلمون في تلك الفترة . فمن الصعب بناء حكم شامل أو عام عليها . نستطيع أن نعتبر الفترة الثالثة قد بدأت بعد عام الجماعة واتفاق الكلمة علىبيعة معاوية بن أبي سفيان . فإذا بدأنا نحاول أن نتبين معالم ذلك الدور نجد أن أهم معلم وأبرزه هو الفصام بين القيادتين : القيادة الفقهية والقيادة السياسية ، فأصبح لدينا لأول مرة منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة سياسية لا تستطيع أن تمارس عملية الاجتهاد ولا تحمل أهليته . وفي الجانب الآخر كان لدينا أئمة وعلماء بل لا يزال الكثيرون من قراء الصحابة على قيد الحياة ، فسياسيون غير مجتهدين ، ومجتهدون لا يحملون مسؤولية التنفيذ . وهنا نستطيع أن نتبين أن هذا الفصام قد ترك آثاره على قضية الاجتهاد وعلى المناخ العقلي والنفسي للأمة ، وبعد أن كانت الأمة كلها متجهة ذلك الاتجاه العقلي الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصبح هناك اتجاه سياسي يهتم المحافظة على الأوضاع وتسيير الأمور ، واتجاه فقهي يهتم الاحتياط لعقائد الأمة ولمصالحها التشريعية وتقييد الحكام ما أمكن ومحاولة تعقيد قضايا الاجتهاد في وجههم لكي لا يستطيعوا في أمور الشرع ولكي لا يتجاوزوه .

نستطيع أن نلخص هذه النقطة أو ننتهيها بأنه أصبح لأول مرة عندنا بعد تحول الخلافة إلى ملك ، سياسة مبنية على المصالح أو تلحظ فيها المصالح لوجهات النظر المختلفة وتنطلق منها ، وفقه مبني على الاحتياط والتحفظ والحرص على تقييد الحاكم والخوف من انطلاقه دون ضوابط ودون قيود ، ونوع من الصراع الخفي يتجاذب العلماء من جانب والسياسيين من جانب آخر ، فالسياسي يحاول أن يتبنى مجموعة علماء يمكن أن ييسروا له عملية إعطاء المشروعية لما يراه من مصالح ، وفقه يحاول أن يعقد على الحاكم ما استطاع أو أن يسد عليه السبيل ما استطاع في هذا .

#### مشروعية الفقيه وتبني فقهاء السياسة :

هكذا حدث الفصام بين القيادتين السياسية والفكرية المتمثلة في الفقهاء وما لاحظناه نتيجة لهذا الفصام من بداية سياسات تعتمد المصالح وتنطلق منها ضمن

إطار التفكير السائد آنذاك وفقه ينبثق عن اجتهادات فقهاء لم يعد لهم من المسؤولية التنفيذية شيء مما كان له تأثيره في السياسات من ناحية وتأثيره في الفقه من ناحية أخرى ، يمكن أن نلاحظ قضية أخرى هي قضية المشروعية . الفقيه يحاول أن يعتبر نفسه هو حامل المشروعية وصاحبها والسياسي في حاجة إلى هذه المشروعية ليبرر سياساته أمام الجمهور وليحصل لها على الدعم الكافي ، فيجد السياسي نفسه مضطرا إلى تبني فقهاء يمكن أن يضيفوا على سياساته هذا الجانب .

والفقيه الذي لم يعد له من السلطة التنفيذية شيء وأصبح بعيدا عنها وهو يتخوف من هذه السياسات ونتائجها ويحرص على رفع سلاح المشروعية أو الشرعية لإيقاف الحاكم عند حد كان له أثره الفكري والعقلي وأثره في تغيير البيئة العقلية والنفسية التي كانت قد وجدت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجدت على عهد الصدر الأول الذي كان تتمثل فيه قضية اجتماع القيادتين السياسية والفكرية والفقهية في أشخاص موحدين .

هذه الملاحظات نستطيع أن نقول بقيت متوافرة طيلة العقود التي فصلت ما بين معاوية حتى خلافة عمر بن عبد العزيز . في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه نجد لديه اتجاهها آخر كأنه لاحظ عملية الانقسام بل ما يشبه الفوضى الفكرية التي كانت قد دببت بين العلماء ، وظهور مدارس الرأي ، ومدارس الحديث وانقسام فقهاء المسلمين في أقطار كثيرة وتوزعهم على هذه المدارس بقطع النظر عن بعض التفاصيل الدقيقة المتعلقة بكل منها ، فنجد أنه جاء بمحاولة لمعالجة هذه الحالة ولمحاولة إعادة المشروعية وبناء المرجع بشكل آخر فأوعز بجمع السنن ، سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآثار التي تركها الصحابة في محاولة منه أن يجعل هذه السنن وهذه الآثار المرجع الأساسي للناس ، لعل ذلك يقلل من اختلافات المدارس الفقهية ، لعل ذلك يخفف من أجواء الصراع، إضافة إلى إجراءات كثيرة كان قد اتخذها هو ومنها بعض الإجراءات السياسية المعروفة في محاولة الإصلاح . ولذلك نظر إليه على أنه خامس الخلفاء الراشدين أو أنه امتداد لهم ونظر إليه من زاوية أخرى على أنه مجدد . وكان لجمع السنن والآثار آثارا معينة في بناء العقلية أو الأرضية

الجديدة لإعادة النظر في قضية الاجتهاد وإعادة بنائها بشكل لعله يحفظ على الأمة وحدتها وبقائها شرور الانقسام .

### انقسام الفقهاء :

جمع السنن على أنه خطوة ممتازة تسجل للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله في هذا ، لكن جمع السنن لم يسد الفجوة بين القيادتين السياسية والفقهية من ناحية أخرى ، واستمرت الفجوة تتزايد بينهما ، جمع السنن لم يمه ذلك الفصام ولم يقض على أسباب الخلاف بين الفقهاء وانقسامهم إلى أصحاب رأي وإلى أصحاب حديث ، بل إن جمع السنن نفسه قد أصيب كمحاولة إيجابية أصيب بمحاولات مضادة هي محاولات الوضع والتشويش على السنن . فالانقسامات السياسية التي كانت قد استبدت بالمسلمين وتمزقهم إلى فرق وإلى شيع جعل كل فرقة تحاول أن تبحث عن جانب مشروعيتها من خلال السنن . وكانت السنن في تلك الفترة تقوم بما تقوم به وسائل الدعاية مجتمعة في عصرنا هذا . فإن لم يجد الناس سنة تدعم زحلتهم أو فكرتهم وضعوها ، ومما يروى في هذا طبعا أمور كثيرة حتى يقال إن المختار الثقفي حينما دعى إلى نفسه حاول أن يجد حديثا يسند وضعه أو يجعله ذا حق في القيادة ، فلما لم يجد عمد إلى بعض الأوضاع الذين عرفوا بوضع الحديث وقال له : ضع لي حديثا يتنبأ بمجيء كخليفة أو أمير لهذه الأمة وأدفع لك عشرة آلاف ، فقال له الوضع الكاذب أنا مستعد أن أرضى منك هذا على أن لا يكون مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما يكون موقوفا على صحابي أو نحوه ، يعني أنه كان مازال لديه شئ من ضمير كما يقال . فإذا عملية جمع السنن نفسها بالرغم من كونها عاملا إيجابيا لكنها لم تستطع أن تحدث الأثر المطلوب في سد الفجوة بين العلماء والسلطان ، ولا في إعطاء المشروعية لأحد الجانبين ولا في إنهاء عملية الانقسامات والانشطارات التي كانت تجري وتستمر نتيجة عوامل انحراف الإمامة وعوامل الصراع السياسي التي ظهرت للأسف في ذلك الوقت المبكر . وانفرط عقد المشروعية وبدأ الحكام يتجهون اتجاها آخر يحاولون كما قلنا استقطاب بعض العلماء للوصول إلى نوع من إضفاء المشروعية على سياساتهم ، ويرفضون آراء علماء وفقهاء آخرين فكانها نوع

من محاولة التقنين كما نسميه في مفاهيمنا الحديثة ولكنها لم تظهر بشكل واضح على الأقل في الفترة الأموية، ولكنها في الفترة العباسية ظهرت كمحاولة تقنين رسمي ، يعني اتخاذ موقف فقهي أو تبيين لموقف فقهي ورفض للمواقف الأخرى .

وفي العهد الأموي يسجل لنا التاريخ الصراع الذي دار بين الإمام مالك رحمه الله وبين الإمام أبي حنيفة وبين بعض الحاكمين في تلك الفترة ولكن هذا الصراع بدأ بشكل أوضح بين هؤلاء الأئمة وتلامذتهم ومدارسهم ، وبين خلفاء بني العباس .

هكذا دبت وتعددت الانقسامات بين الفقهاء من ناحية ، إضافة إلى انفصامهم بصفة عامة عن السلطة وكثرت الآراء والاجتهادات بين الفقهاء ، طريقة عرض القضايا الفقهية في تلك الفترة كان الفقيه يجلس في المسجد ويعتمد على سارية من سواري المسجد ويأتي إليه الطلاب من كل جانب ليستمعوا إلى فتاواه ويسيروا بها كما يقال تسير بها الركبان وتصل إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي بالسرعة المناسبة في ذلك الوقت وتحدث ما تحدثه من آثار .

فحتى على سبيل المثال الإمام مالك عليه رحمة الله أفتى فتوى فقهية بعدم وقوع طلاق المكره وأن الإنسان إذا أكره على الطلاق فلا يقع طلاق المكره ، وبطبيعة الحال الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : «رفع القلم عن ثلاث عن النائم وعن الناسي وعن المكره» ، والمفروض الإكراه معروف أنه من الأمور التي لا يترتب عليها حكم ما أكره عليه الإنسان . والقرآن نص القرآن قبل هذا واضح «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ، فرغم هذا ضرب الإمام مالك على فتواه هذه حتى شلت ذراعه . لماذا ؟ لأن الفتوى حملت معنى سياسيا ، ربما كان الإمام يقصده أو لم يكن يقصده ، لا أحد يدري الآن ، لكنه حملت هذه الفتوى - وهي فتوى تتعلق بالطلاق وفي مجاله - حملت معنى سياسيا ، واعتبر العباسيون - لأنه لا كان الصراع مع المنصور - أن هذه الفتوى كانت تستهدف ما ابتدعه هو من إدخال أيمان الطلاق في البيعة ، وأنه حينما بدأ الخلفاء يأخذون البيعة من الناس يأخذونها حلف بالله وعهد وكذا مع الطلاق .

غير مشروعة أو آراء لا يؤخذ بها ، كما حدث بعد ذلك وتطور الحال في العهد العثماني حينما أصبح ما يؤخذ من فقه أبي حنيفة وحده يعتبر هو الأمر المقبول وهو الذي تجري عليه الدولة ، وما يؤخذ من الفقهاء الثلاثة الآخرين من فقهاء للسنة لا يعتبر ممنوعا لكن لا يؤخذ به ولا ينفذ ولا تمنع دراسته . أما ما بقي بعد ذلك فحتى لو أوقفت لهم أوقاف أو شئ فيحرم هؤلاء عادة من أي شئ لأن فقهم لا يعتد به ولا يعترف به بحال من الأحوال . فهنا برصد كل هذه النقاط ، لا أحاول أن أدخل في تفاصيل ولكن أحاول فقط أن أثير معالم وقضايا ، برصد هذه النقاط نستطيع أن نتبين أن البيئة النفسية والعقلية التي صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت بارزة في الصدر الأول قد تغيرت تماما وتحولت إلى بيئة أخرى وأضيفت إليها ألوان المشكلات الفكرية التي طرأت نتيجة هذا كمشكلة الصراع بين العقل والنقل ، وهل يقدم العقل على النقل عند الاختلاف أو يقدم النقل أو نحو ذلك ، وقضية منهجية النقل ومنهجية فهمه وقضية التأويل والتفسير ونحو ذلك من مشكلات فكرية عويصة كلها أسهمت في عملية تغيير البيئة العقلية والنفسية للأمة آنذاك .

#### اضطهاد العلماء وسحب المشروعية منهم :

في هذا الإطار إطار تغيير البيئة العقلية والنفسية للأمة ، إطار النزاع على المشروعية بين السلطان والفقهاء أو الشرعية بين السلطان والفقهاء ، نستطيع أن نفسر سائر قضايا الاضطهاد التي تعرض لها العلماء . أبو حنيفة مات في السجن ، مالك ضرب حتى شلت يمينه ، الإمام الشافعي جيء به مقيدا بالسلاسل من اليمن إلى بغداد ، كثير من العلماء تعرضوا للضرب والحبس ونحوه ، كذلك الإمام أحمد سجن في قضية فتنة خلق القرآن ، والإمام البخاري ، والآخرين من محدثين وفقهاء . حقيقة حينما نريد أن نجد تفسيراً لهذه القضايا نستطيع أن نفهمها في هذا الإطار . نجد لأول مرة تطرح عملية الصراع على المشروعية بشكل عنيف جدا على عهد المأمون . ففي عهد المأمون نجد المأمون واضحا وصريحا في محاولته نقل الشرعية إلى العقل وسحب البساط كما يقال من تحت أقدام الفقهاء . فنادى أن العقل حاكم قبل الشرع وأن العقل يستطيع أن يدرك الحسن والقيح بل ويحدد حتى معاني الحل العقلي

يعني يقول بأن زوجته طالق أو أزواجه طالقات فيما إذا خلع ربة الطاعة من عنقه . فقيل للخليفة أن الإمام مالك يقصد ذلك بطلاق المكره هذا ، وأن معنى الفتوى له مغزى سياسي ، ربما يكون ربما لا يكون ، ولكن هذا فقط نموذج يوضح لنا إلى أين بلغت عملية الصراع .

### الصراع على المشروعية وبداية التقنين :

فإذا أصبح هناك صراع على المشروعية أو على الشرعية بين الأئمة وبين الفقهاء . نجد أن أحد خلفاء بني العباس ، أبو جعفر المنصور ، يستشير ابن المقفع في هذا . وابن المقفع أديب فارسي دخل الإسلام يشكك البعض في إسلامه ، ولكنه في أي الأحوال إنما جاء من خلفية حضارية أخرى . فاقترح على الخليفة المنصور التقنين ، ولم تكن فكرة التقنين معروفة لدى المسلمين آنذاك وكان الفقيه كما قلنا يستند إلى سارية من سوارى المسجد ويقول ما شاء ويفتي بما يريد . وقد يقول ما هو مقبول وما هو مرفوض ، ولكنها حلقات علم وبحث يجري العقل فيها مجراه دون قيود . فإذا بالخليفة المنصور يحاول أن يقنع الإمام مالك نفسه بأن يتبنى فقهه من خلال الموطأ وأن يلغي ما عداه . ويحاول بعد ذلك هارون الرشيد المحاولة نفسها ، ثم يجري شبه اتفاق ضمني بين هارون الرشيد وبين القاضي أبي يوسف (الإمام المعروف من أئمة الحنفية وتلميذ أبي حنيفة الأكبر) على تبني الفقه الحنفي ، ولو بشكل غير معلن ، من خلال أن القضاة أصبحوا لا يُعِينُونَ إلا من حملة هذا المذهب ومن حملة هذا الفقه ونحوه . لكن هذا كله لم يوقف ما يمكن أن يسمى بالفوضى الفكرية الناجمة عن الخلط بين ميادين البحث العلمي وبين قضايا التنفيذ . فالسياسات لا يمكن أن تنفذ بعشرة آراء يعني إذا جاءني متقاضيان مختلفان في مسألة من المسائل وطلبا الحسم في القضية التي بينهما لا أستطيع أن أقول لهما يمكن أن تحسم قضيتكما على عشرة أوجه فاختراروا من هذه الأوجه ما يمكن ، ولكن يجب أن أتبنى أنا شيئا معينا أو رأيا معينا وأقول هذا لك وهذا لذلك درنا للخصومة وإنهاء لمشاراة الجدل . فإذا بلغنا العهد العباسي نجد أن فكرة التقنين قد ظهرت لأخذ المشروعية من الفقهاء بصفة عامة ودعم الفقه الذي يتبناه السلطان من خلال عملية التقنين ، ولتبقى الآراء الأخرى آراء

والحرمة العقلية وطرح هذه الفكرة وحاول أن يجد لها من تراث الأمم ما يسندها وما يستطيع في ذلك أن يجعلها الفكرة السائدة قام بوجهه الفقهاء يدافعون عن سلطان الشرع ويحاولون أن يلغوا دور العقل . وكانت هفوة أو سقطة فكرية عظيمة جدا وهي السقطات التي تعتمد باستمرار على الفعل ورد الفعل فلا تكون منضبطة في إطار ، لكن بعض علماء الأمة بدون شك استطاعوا أن يعوا عملية الصراع فحاولوا أن يضعوا ضوابط أصول الفقه لتكون ضوابط وسط وتستطيع أن تحدد إطار الصراع على المشروعية أو الشرعية بشكل آخر فلذلك نجد في أدبياتنا الأصولية وفي أدبياتنا الكلامية في فكرنا التاريخي كثيرا من القضايا المثارة . فليس هناك كتاب أصولي يخلو من البحث في مسألة حكم الأشياء قبل الشرع هل هو للعقل أو لماذا ، ومسألة قبل البعثة قبل أن يبعث الله الأنبياء ماذا كان حكم الأشياء ، وكيف يتعامل مع الأشياء على فرض عدم وجود الأنبياء . العقل المسلم لم يكن يعرف هذه الفرضيات التافهة إطلاقا . العقل المسلم كان قد انطلق من إقرأ ، كما قلنا بعيدا عن مثل هذه الفرضيات العقلية التي لم يكن لها محل فيه ، ولكن عندما تغيرت هذه البيئة العقلية والنفسية أصبحت مهياة لقبول مثل هذه الأطروحات وإذا بالمأمون يعمد إلى ترجمة الكتب الفلسفية للأمم الأخرى وي طرحها على العقل المسلم في محاولة لامتصاص المشروعية أو الشرعية واستقطابها حوله وانتزاعها من بين أيدي العلماء الذين تعرضوا إلى ذلك الاضطهاد العنيف والذين كانت الأمة وهذا أمر آخر أيضا أو ملحظ أو وقفة أخرى ربما تحتاج من السياسيين إلى نوع من البحث ، وهو موقفهم من عملية الحصول أو محاولة الحصول على الشرعية ومصارعتهم الفقهاء والكلاميين معا في ظل قضية الصراع بين العقل والنقل والحاكم هل هو الشرع أو العقل وإذا تعارض العقل مع الشرع أو الحكم العقلي مع الحكم الشرعي فأبي الحكمين يقدم - أنا لا أستطيع حقيقة أن هذان المفهومان أجمل من تلك الحقيقة المرة التي نلمحها في هذين الفريقين ، وبرز صوت مقابل لهذا يحاول أن يطرح الاجتهاد بمفهوم آخر ، وهو صوت لا يعدو أن يكون رد فعل من عقل مرد على التقليد واعتبره أصلا ، فهاجم الاجتهاد جملة وبكل أشكاله ، لإسكات الصوت السابق وسحب رداء الشرعية تماما ، عنه وحشد سائر المبررات التاريخية المحفوظة في الرد على القائلين بالاجتهاد بل والتأكيد على عدم الحاجة إليه . هذان صوتان . (٣) جاء صوت ثالث

يقول بجواز أو حل أو وجوب الاجتهاد في الحوادث من الأمور ، أما ما سبق للعلماء فيه قول أي قول فذلك القول السابق يعني أيا كان ، فالسابق أفضل من اللاحق ، والقديم خير من الجديد وأسلم عاقبة ، وكان الأمة في حاجة إلى بنود فقهية جديدة تشل حركتها وتدمر حاضرها ، وتصادر مستقبلها ، وقد بدأنا نسمع الكثير من الفتاوى التي تكاد تضحك الثكلى في بعض الأحيان عن أطفال الأتابيب وبنوك الحليب ، وغيرها . وظهرت للفقيه المعاصر وظائف ومهام حادثة لم يعد لها ولم يهيا لممارستها ، ومعظم تلك الوظائف والمهام ، تأتي إليه من مؤسسات تشاقق الله ورسوله ، وتعطل الضروري من تعاليمه وأحكامه وبدأت صفات الشرعية وعدمها توزع هنا وهناك بطريقة عشوائية . (٤) وصوت رابع ارتفع يعني مفهوم رابع للاجتهاد ، ارتفع ليبرر الواقع أي واقع يراد تبريره من خلال ما سمي بالاجتهاد ، وينعت دعاة التمسك بالإسلام بالتطرف والتزمت والتعصب ونحوها من الألقاب ، فهو يحاول أن يبرر الواقع أي واقع مهما كان يفتي له ويضفي عليه ألقاب الشرعية والمشروعية ، رافضا كل ما عداه . فإذا قيل له أين الدليل على ذلك قال : إنه اجتهاد . وقد كان الحوار لا يزال بين هذه الأصوات الأربعة ، أو بين الفرق الأربعة وما طرحته من مفاهيم للاجتهاد هو حوار بين صم لا يسمع أي منهم الآخر ، ولكن الجميع يصطرخون فيها .

## الاجتهاد على منهاج النبوة من منظور معاصر :

أشرنا إلى أربعة مفاهيم للاجتهاد طرحت على العقل المسلم في عصر ما بعد النهضة الأوروبية ، وهناك صوت خامس أو فهم خامس للاجتهاد يكاد يضيع بين الأصوات الكثيرة المطروحة في هذا الموضوع ، لكنه صوت تجديدي على منهاج النبوة يستهدف إعادة بناء وتشكيل العقل المسلم ، وإعادة ترتيب أولوياته وبناء منهاجيته ، وقراءة أصول الإسلام من جديد ، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينها وبين العقل المسلم ، وهو صوت قوم يدركون أن الاجتهاد إنما هو حالة عقلية ونفسية للأمة لها بيئتها وشروطها وأركانها ، فما لم تتوافر تلك الحالة ببيئتها وشروطها وأركانها ، لا يمكن أن تحدث حالة الاجتهاد ، ولا يمكن الخروج من حالة التقليد ، ولو أن الأمة كلها حشرت على صعيد واحد ، ورفعت عقيرتها دفعة واحدة منادية بالاجتهاد ، ورفع كل منها لافتة تدعو إلى الاجتهاد ، وجعلت الدعوة إلى الاجتهاد شعارها ودثارها ، فإنها لن تتقدم باتجاه الاجتهاد خطوة واحدة ما لم تتوافر تلك الحالة وبيئتها وشروطها وأركانها وقواعدها . كما يدرك هؤلاء أصحاب هذا الصوت الخامس أن الاجتهاد في القضايا الفقهية إنما هو جزء من عمليات الاجتهاد الكثيرة المطلوبة لإخراج الأمة من حالة الغثائية ، مأخوذ من أنها غثاء ، كغثاء السيل بكل خصائصها إلى حالة الخيرية والوسطية ، بل إن الاجتهادات الفقهية ثمرة متأخرة لحالة الاجتهاد العام ، والفقه الجزئي جزء من حلول العقل الكلي وجزء من الفقه الأكبر لمشكلات الحياة والاجتهاد العام . والفقه الكلي هو الذي يمكن أن يحقق العمران ، ويقيم البناء الحضاري ، ويجعل من الفقه الجزئي فقها ضابطا لشبكة من العلاقات والأوضاع الناجمة عن حالة العمران التي تنتقل إليها الأمة بعد قيام حالة الاجتهاد فيها ، ليضبط الفقه تلك العلاقات . أما المبادرة بابتكار الأحكام وتهيأتها لعمران لم يحدث بعد ، فإنما هو وضع لم تعرفه النبوة ولا عصرها ولا عصر الراشدين ، وإنما هو وضع عرفته الأمة في عصورها المتأخرة وهو من قبيل وضع العربة أمام الحصان كما يقال . وعلى هذا فإن الاجتهاد عند أصحاب الصوت الخامس هو مفهوم شامل يدل

على أن الأمة سيبلغ فكرها وعقلها مستوى من القدرة التامة على مواجهة كل ما تستقبل من تحديات انطلاقاً من منهجيتها الإسلامية ، وقواعدها الفكرية ، ونظرتها الشاملة للكون والحياة والإنسان . ويرى أصحاب هذا المفهوم أن من أهم عوامل إيجاد بيئة الاجتهاد وإحداث النقلة الفكرية ومعالجة أزمات الفكر وضوابط المنهج من ناحية ، وبناء عقلية الأمة ونفسياتها من ناحية أخرى ، وليتم ذلك لابد أن تعيد الأمة بناء منهجيتها الفكرية ونسقتها الثقافي وتربط عوامل اكتساب المشروع من عداها بقضايا ثابتة تستعصي على إمكانيات التلاعب والتوظيف لصالح عمليات الصراع . وهذا أمر يتوقف على إعادة الفاعلية إلى منهجية القراءة للأصول الإسلامية خاصة الكتاب الكريم ، وفهم السنة النبوية في ضوء كلياته وغاياته ومقاصده ، ثم بناء علوم الأمة ، وهي العلوم الاجتماعية الإنسانية على هدى من تلك المصادر ومن منطلق اعتبار الوحي مصدراً للتصور الإسلامي الكامل ، ومصدراً لمعرفة الغايات والأهداف والمقاصد والنظرة الكلية الشاملة ، واعتبار العقل الإنساني مناط التكليف والوسيلة الأساسية لمعرفة الخالق العظيم ، وفهم وحيه وحسن تلقيه ، وفهم الفطرة الإنسانية الفردية والاجتماعية ، وفهم السنن الكونية والواقع المعاش ، وهو (أي العقل) وسيلة الإنسان وأداته في تنزيل الوحي على الواقع ، وتنظيم جدلية الغيب والإنسان والوجود ، لتوليد الحلول والأنظمة والمعالجات والوسائل والسياسات التي يمكن الإنسان من القيام بمهمة الاستقلال ، وأداء الأمانة ، وتحقيق العمران . إن العلاقة بينهما ، أعني بين الوحي والعقل علاقة لازمة لا تقبل الانفكاك بحال ، وهي علاقة تكامل وتعاون هكذا جعلها الله تعالى . ويتعاوض الوحي والعقل وعملهما معا واعتبار الوحي والوجود مصدرين للمعرفة المتكاملة ، واعتبار العقل وسيلة الفهم وأداة البناء ، يمكن بناء العقلية المسلمة والنفسية المسلمة ، وإيجاد البيئة ذات النسق الثقافي المتكامل التي يصبح الاجتهاد فيها حالة طبيعية تهيأ لها العقل ، وهشت لها النفس ، واستفادت بكل روافد الوحي والوجود لبناء علوم الأمة ، علوم العمران ، العلوم الاجتماعية الإسلامية البديلة القائمة على التصور الإسلامي ، والرؤية الإسلامية التي سوف تساعد في فهم الإنسان والبيئة وتنظيم علاقة الإنسان بالبيئة

وبالإنسان الآخر وبالغيب ، بشكل يجعل عملية تنزيل الدين على الواقع عملية سهلة ميسرة تستجيب لها سائر العناصر ، وتساعد الأمة على بناء مؤسساتها وتربية أجيالها وعناصرها بشكل يؤهلها لممارسة دورها الإيجابي ، ويمكن من دراسة التراث والتاريخ بشكل ينقذ الحاضر والمستقبل من ضغوط الماضي ، ويجعل الإنسان المسلم قادرا على التمييز بين إيجابيات ذلك التراث وسلبياته وتمكنا من حسن قراءته .

### العقل والنقل :

إن علماء أصول الفقه قد قرروا أن أصول الأحكام هي النقل والعقل ، وهم حين قرروا ذلك ، أدركوا أنه لا بد من تلازم الدليلين وتعاضدهما بالشكل الذي ذكرنا ، ولكن عملية وضع القيود على العقل المسلم ومحاولة عرضه على أنه عقل ليس له أن يتصرف إلا من خلال منهج القياس أو الاستحسان أو نحو ذلك من الأمور التي لن تمكنه من مواجهة كل تحديات الحياة ، ولن تمكنه من بناء ما يحتاج من مؤسسات لتنزيل الدين على الواقع ، إنما كان ذلك مظهرا من مظاهر عملية الصراع على الشرعية بين العلماء والحكام ، ومحاولة حماية الإسلام من وجهة نظر هؤلاء من التيارات التي تخضع لإدارة الحاكم وسياساته ، وتحول الاجتهاد لو أطلق مفهومه إلى أداة من أدوات الحاكم الذي حصل الفصام بينه وبين القرآن منذ وقت بعيد ، ألا وإن السلطان والقرآن سيفترقان ، فكونوا مع القرآن حيث كان .

وبذلك انحصر عمل العقل المسلم في دائرة تلك الأدلة التي عرفت أو سميت بالأدلة المختلف فيها ، فإذا استطعنا اليوم أن نخرج العقل المسلم من تلك الدائرة وأن نجعل من عملية الاجتهاد أو منهجية الاجتهاد ، منهجية هادفة إلى إعادة بناء العقل المسلم وفق النسق الذي ذكرنا ففي هذا الإطار يمكن أن تأخذ العقيدة دورها الصحيح ، في كونها القاعدة التي يقوم عليها كل ما عداها ، وتنبتق عنها الرؤية الكلية للإنسان المسلم ، ويبنى على أساسها الإطار المرجعي في سائر القضايا وتلاحظ

الغايات والأهداف الإسلامية ، وتبسط تلك الأهداف والمقاصد على الممارسات الحياتية والنظم التربوية والاجتماعية لتنعكس عليها ، وتعطيها الفاعلية والقدرة ، ويزول الفصام النكد بين المنطلق التنظيري الذي هو العقيدة ، وبين عناصر وهيكل ووسائل التطبيق ، ويقضى على تلك الشكلية المفرغة في الممارسة الإسلامية ، والتعطيل في الاعتقاد ، والجزئية والتشطير في النظر والفكر ويساعد ذلك بدون شك على الانعتاق من ربة التقليد والتلفيق الذي عمد إليه بعض علمائنا حين فرضت عليهم الظروف الخروج عن الإطار الذي وضعوه ، وجاءتهم من النوازل ما لم يستطع أو تستطع الأدلة المختلف فيها أن تستجيب إليه ، عمدوا إلى منهج سموه بمنهج التلفيق ، وفي هذا كتاب اسمه (عمدة التحقيق في أحكام التلفيق) \* ليتمكن من خلال تلك الملفقات أن يستجيب العقل المسلم لبعض ما يصادفه من مشكلات الحياة . وكان الله سبحانه وتعالى قد أغنى عن هذا ، وفي حديث معاذ بن جبل المعروف ، كان منهج فيه غناء حين ابتعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال له : «بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله ، قال فإن لم تجد ، قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن لم تجد ، قال : اجتهد رأي ولا آلو ، أي ولا أقصر ، فضرب عليه الصلاة والسلام على صدره ، وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما يرضى الله ورسوله» . كان لهم سعة وغناء وفي هذا المنهج الذي نريد بناءه ، سعة وغناء إن شاء الله عن أن نزيد في قائمة الأدلة المختلف فيها ، أو أن نعمد إلى ما سمي بمنهج التلفيق .

### التلفيق :

التلفيق هو أن أعمد إلى مسألة لا يناسبها قول بكامله ، فأخذ من هذا القول شئ جزئي ، وأخذ من الآخر فأركب قولاً جديداً ، قول ثالث مثلاً في مشكلة ما ، الإمام الشافعي يرى المنع ، الإمام أبو حنيفة يرى الجواز ، المنع والجواز متناقضان . ماذا يعمل الفقيه الملق ؟ يأخذ من أبي حنيفة قضية الجواز ، يأخذ من الإمام الشافعي قضية المنع ، ويقول

: يمنع في كذا ويجوز في كذا ، فهذا هو قول ثالث في الحقيقة ، لكن هو اعتمد فيه عندما تطالبه بالدليل يسند لك على الجواز في تلك الحالة بدليل المجوز ، يستند على المنع في تلك الحالة بدليل المانع ، لكن هو بنفسه لم يقم بعملية اجتهاد ، وإنما لفق من هذين القولين . أعطيك مثالا على ذلك القراءة مثلا ، قراءة الفاتحة خلف الإمام قراءة الفاتحة أو أي شيء خلف الإمام ، عند الإمام أبي حنيفة ممنوع ، عند الإمام الشافعي واجب ، فأنا آتي بقول ثالث . أقول إذا كان الإمام يصلي صلاة جهرية فلا تقرأ أيها المأموم ، لكن إذا كان الإمام يصلي صلاة سرية ، فاقرا أنت . هذا قول ثالث . أنا أخذت جزء من مذهب أبي حنيفة وجزء آخر من مذهب الشافعي . لكن أنا خرجت بقول ثالث يصلح يعني يصلح أن يكون ثالثا ، لكن ليس لدي عليه دليل مباشر إنما سأستدل للقراءة بمعنى ما يستدل به الشافعي لوجوب القراءة ، وأستدل لعدم القراءة بدليل الحنفي ، ويعني لم أبذل شيئا من الجهد العقلي فيه .

وفي ظل هذا المفهوم للاجتهاد يمكن أن يأخذ الفكر والاجتهاد دورهما كذلك في بناء الهياكل المناسبة لحياة الأمة ، كما يأخذ الفقه دوره في تنظيم شؤون الحياة وضبط جزئياتها ووقائعها بضوابط الشرع ، ويؤدي المعجم اللغوي دوره المناسب كذلك في عمليات الفهم الشامل ، وتظهر خطوط فاصلة بين عناصر المنهجية الإسلامية على أنها خطوط توضيحية ، لا تثير تناقضا ، ولا تسمح بأن يصادر بعض حلقاتها على البعض الآخر ، أو يلغي دوره .

### النظرة الكلية الشاملة للاجتهاد :

بدون تلك النظرة الكلية الشاملة إلى الاجتهاد لا يمكننا أن نحقق الدين في الواقع إطلاقا ، ولا يمكننا أن نواجه تحديات الحياة المعاصرة ، ولا يمكننا أن نعطي كلمة الله سبحانه وتعالى في الأرض ، على سبيل المثال أختار مجرد نماذج للتمثيل . الفكر الإسلامي المعاصر الآن ممزق في قضية أساسية هي : قضية المكي والمدني . كثيرا ما نسمع الحوار

بين الإسلاميين ، هل نحن في دور مكّي أو نحن في دور مدني حوار لا يحمل من سمات العقل شيئا ، ولا يحمل من سمات المنطق أو الدين شيئا على الإطلاق ، حوار نجم عنه خذوا الإسلام جملة أو دعوه جملة . وشعارات من مثل هذا النوع ، معلوم أن أي لحظة زمانية تمر لا يمكن إعادتها بأي حال من الأحوال ، وقضت سنة الله سبحانه وتعالى أن لكل أجل كتاب وأن ما مضى يستحيل أن يعود . تلك سنة الله ، فلا الدور المكّي يمكن إعادته ، ولا الدور المدني يمكن إعادته بحال من الأحوال ، وهذا النقاش اللامنطقي ، اللامعقول حول هذا الموضوع ، نقاش فرضه عجز العقل المسلم عن مواجهة واقع معاصر ، ربنا يقول : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» كيف أقول أنني في دور مكّي ؟ طيب ولكن حين ما ينظر المسلم من حوله ويرى أمامه الانحرافات الهائلة ، بدلا من أن يبحث عن منهجية معاصرة لنشر الإسلام ، وتنزيل أحكامه وقيمه على الواقع بشكل يناسب هذا العصر ، يذهب إلى متاهات التاريخ ، يسأل ما إذا كان هو في الدور المكّي ، فيعمل كعمل أهل مكة ، أو أنه خرج من الدور المكّي ، فيعمل كعمل أهل المدينة . هذا كله تعبير عن حالة عجز هذا العقل المسلم المعاصر عن مواجهة واقع جديد ، وإلا فالرسالة كاملة ، والنبوة قد ختمت ، والوحي قد توقف ، والقرآن قد اكتمل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، ومضت كل هذه القرون على الإسلام والمسلمين ، ونحن نتساءل ما إذا كنا في الدور المكّي أو في الدور المدني تماما حالة عجز قاتلة ، حالة عجز مريبة : الذي نحتاج إليه هو ألا نتساءل عن هذا ولا ذلك ، ولكن نحن في هذا الدور الذي نحياه ، نحن في هذا العصر في هذا الزمن ، نحن نحمل الإسلام وقيمه ، نحن نؤمن بالدين وقيمه ، نحن أمام واقع جديد ، نحن نريد أن تنزل هذه القيم على هذا الواقع ، كيف نفعل ؟ علينا أن نهتدي بمنهاج النبوة ، ما هي غايات النبوة ، ما هي مقاصد الشريعة ، ما هو المنهج الذي اتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما هي روحه ما هي مقاصده ، ما هي غاياته ، نحولها إلى قيم يمكن التعامل معها في عصرنا هذا ، وفي بيئاتنا هذه ، وبالتالي نستطيع أن نجتاز المرحلة ، ونستطيع أن نخرج

من ذلك الجدل العقيم . الذي يقول نحن في الدور المكسي يريد أن يقول أنه هو غير قادر على تطبيق الشريعة ، طيب وهل كونك غير قادر على تطبيقها يعني أن تعطلها أو أن تلغيها أو تسد آذانك وعينيك ، وتضع فواصل وحواجز بينك وبين هذه الأمور ، وكيف تفسرها وكيف تأولها وكيف ... ؟ لا طريق لك إلا أن تعيل عقلك في الوصول إلى منهجية معاصرة تمكنك من تنزيل قيم هذا الدين على هذا الواقع ، وجعل هذه القيم تتعامل مع هذا الواقع أيا كان . هذا أمر لن تستفيده من تاريخنا ولن نستطيع أن نجد عند الفقهاء الأقدمين سائر الحلول التي تحتاجها لمشكلاتك ، ولن تتمكن من أن تنزل هذا الدين على هذا الواقع من غير عقل متألق وقاد حر منطلق ، يتعامل مع كتاب الله سبحانه وتعالى ، ومع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، من خلال قراءة دقيقة واعية متدبرة شاملة ، تستطيع أن تستخلص قيم الإسلام وغاياته وأهدافه وكلياته ، وإلا فلن تستطيع أن تحقق إسلاما في هذا العصر .

### الفهم الفقهي الجزئي :

لن نستطيع أن نفرض على هذه البيئات ما تعارف عليه أهل المدينة في عصر مالك رضي الله عنه ، يعني أنا لا أستطيع أن ألغي كل ما وصلت إليه البشرية اليوم من فكر اقتصادي ومن علاقات لأقول أن ما ينبغي أن يطبق اليوم ، وما يمثل حقائق الإسلام المطلقة وغاياته الكلية ، هو فهم الإمام مالك لقضايا سوق المدينة في عصره ، وأن هذا الفهم هو الذي ينبغي أن يسود حركة الاقتصاد العالمي ويهيمن عليها ، في هذا اليوم لا يمكن لا يمكن أن آتي بفقهاء أناس قضوا سنوات من أعمارهم يناقشون قضية التسعير من عدم التسعير ، آخذ هذا الفقه وأنزله على هذا الواقع وأحدث فيه حركة اقتصادية كانت النتيجة أنه حينما حاولنا أن نوظف فقهاء في هذا الواقع وصلنا إلى مستوى تريد أن تعيش مسلما ، تريد أن تذهب إلى الجنة ، عليك أن تعيش فقيرا ، وتموت فقيرا ، لأنك لن تستطيع أن تتعامل مع الاقتصاد المعاصر بحال من الأحوال في ظل ذلك الفهم الفقهي الجزئي . تريد أن تحيا حياة معاصرة أن تبني دولة أن

تقيم اقتصادا ، ترى مصيرك إلى النار . يعني هذا هو الخيار الذي نقدمه نحن كفقهاء إذا استمرينا ، إذا استمر دوران عقولنا داخل الصيغ التاريخية ، كيف يمكن أن نقدم الإسلام إلى عالم اليوم من خلال إطار تلك الصيغ ، ومن خلال ذلك الفهم . إنها جناية على الإسلام ، ظلم للقرآن الكريم أن نقدمه إلى عالم اليوم بأفهام أسلافنا ، وأجدادنا ، وأن نقول هو هذا الإسلام المطلوب ، وهذا هو الدين الذي أراده ، الدين المطلق إلى البشرية ، وهذه هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي به ختمت النبوة . لا بد من أن نفهم أن القرآن الكريم قد اشتمل على قواعد وكتليات أساسية ، تستنبط منها الغايات ، نستنبط منها الأهداف ، وأن السنة النبوية المطهرة كانت التجسيد العملي في تلك البيئة لقيم القرآن وأحكامه ، وما أمر الله سبحانه وتعالى به ونهى عنه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سلك منهجية مطلوب التأسى بها ، بعد فهمها ، وأن تلك الجزئيات التي عولجت منها ما يختص بالأشخاص ، ومنها ما يختص بالأماكن ، ومنها ما يختص بالوقائع ، وأن علينا فهمها ، واستلهايم قيمها وغاياتها ، ومحاولة تنزيل تلك القيم والغايات والكتليات على واقع اليوم ، وفقا لمنهجيتها أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتد ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر الأسوة والقذوة والمثل والنموذج هو ما تستخلص من سيرته ومنهجه ما تهتد به في جوانب الحياة . هذا يؤدي بنا إلى أن ما نحتاجه اليوم هو إعادة بناء العقل المسلم ، إعادة تشكيله ، تعريفه بأولوياته ، العودة إلى منهجية القراءة . قراءة القرآن الكريم ، قراءة السنة النبوية ، قراءة السيرة النبوية ، استلهايم تلك السنة والسيرة ، المنهج الأساسي لبناء المجتمع ، لبناء الفرد ، لبناء الأسرة ، ومحاولة النظر في واقعنا ، ومعرفة مجتمعاتنا ، وكل التطورات التي حصلت بها وتوظيف العلوم الاجتماعية المعاصرة للوصول إلى هذا الفهم ومعرفة آثار كل ليتمكن التعامل مع الإسلام ، ومع كليياته ، مع غاياته ، مع قضاياها ، بالشكل الذي يؤدي إلى أن ينزل هذا الدين في الواقع ويهيمن على الدين كله ، ويتحقق وعد الله سبحانه وتعالى لهذا الدين بالظهور ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . لسنا الآن في حالة ظهور ،

لكن حالة الظهور منتظرة ، ولا يمكن أن تتحقق حالة الظهور ما لم يُعَدَّ تشكيل العقل المسلم ويصبح هذا العقل مثل العقل الأول الذي صنعه القرآن الكريم عقلا قادرا فعلا متديرا قارنا للقرآن قارنا للكون ، قادرا على التعامل مع معطيات كل بذلك الشكل السليم ، ووفقا لهذا المنهج . النماذج كثيرة جدا على عجز العقل المسلم في عصرنا هذا ، النماذج كثيرة جدا على أن معطيات تراثنا من العسير جدا أن تستجيب لحاجات واقعنا ، وأن كل ما عرفته عقولنا وعقول أسلافنا من محاولات تلفيق أو محاولات النظر الجزئي لن تعود على الإسلام ولا علينا بطائل ولن نستطيع أن تخرجنا من حالة تخلفنا ولكننا نخرج منها إذا أوتينا الحكمة ولن نؤتي الحكمة حتى نؤتي ذلك العقل الكلي القادر على التعامل مع النص والسير معه جنبا إلى جنب في بناء هذه الحياة المعاصرة ، فإذا عجزنا عن هذا فلا أقل من أن نكون مبلغين قادرين نوصل القرآن الكريم إلى أمم الأرض ، وندعهم والقرآن ونوصل السنة النبوية إلى أمم الأرض والسيرة النبوية وندعهم وذلك ولا نتدخل في أفهامنا ولا ندخل من خلال عقليتنا المتعبة المريضة في قضاياهم وشؤونهم ونحاول أن نفرض عليهم وعلى القرآن وعلى السنة تصوراتنا وأفهامنا وعقولنا ونفرض القيود على حركة هذا الدين . فرسول الله صلى الله عليه وسلم لحكمة ما كان يقول : «بلغوا عني ولو آية فربُّ مبلغ أوعى من سامع» . قد لا نستطيع أن نكون فقهاء فلنكن حاملي الفقه إلى سوانا لعله يفقهه بشكل أفضل منا ، «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» . أما لو حاولنا أن نحمل الناس على فهمنا المرهق ، على فهمنا المتعب ، فوالله لن نستطيع الإسلام أن يتقدم ولن نستطيع أن نتقدم به إلى الآخرين .

دعوا الناس يفهمون القرآن والسنة بعيدا عن أفهامكم المريضة :

أنا عضو في مجمع فقهي وتعرض علينا كثير من القضايا الفقهية ، وما يعرض حقيقة وما أسمع من حوار ونقاش يحزن في غالب الأمور لا يشكل أي حل ، الحل موجود هو إعادة بناء هذا العقل وجعله يتعامل مع نصوص الكتاب والسنة كمصدر لغايات الإسلام لكلياته لمقاصده ،

ويحاول بجهدته بتعبه بشقائه ، بسهره المتواصل ، بمعرفته بالمجتمع ، بمعرفته بالإنسان ، بمعرفته بطبائع الأشياء يحاول أن ينزل تلك القيم على الواقع . أما أن يستمر العقل المسلم باستقالته يحاول إما أن يتجه إلى غربة جغرافية فيستورد من الغرب ما يحتاج ، أو يتجه إلى غربة تاريخية ويحاول أن يستنطق التراث ما يحتاج إليه اليوم ، فلن يستطيع أن يخرج من هذه الدوامة ، فإذا عجزنا عن أن نفقه هذا فدعوا الناس والقرآن والسنة ، يكفيكم أن تبلغوهما بدون أفهامكم المريضة ، بدون ما لدينا من مشاكل ، دعوهم وكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يفهمونها بالطريقة التي ييسرها الله لهم ، لربما تأتي البدائل المناسبة . أما أن نحاول فرض أفهامنا وتقاليدينا وعاداتنا وموروثاتنا على الناس ، ونقول للناس هذا هو الإسلام وخذوا الإسلام بعد ذلك جملة أو دعوه وإلا فأنتم

... هذا أمر لا يمكن أن يقدم لناخذ ...

### صورة متخلفة للإسلام في بيئة إسلامية جديدة :

أذكر في أمريكا العام الماضي زكاة الفطر ، زكاة الفطر سألنا الناس عنها قلت لهم زكوا زكاة الفطر صاع من تمر أو شعير أو حنطة أو أرز ، من غالب قوت البلد إن لم تجد فأعط ما يعادلها من المال للفقير . وناقشت مع بعض إخواننا هناك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال «إغنوهم عن التجوال أو الطواف في هذا اليوم» يعني زكاة الفطر هدفها أن نجعل هذا الفقير يشارك الغني في متعة العيد . وذكر الله فيه وأن لا ينشغل بهموم العيش وأن يشحن له ولأولاده . فإذا زكاة الفطر يمكن أن تدفع مالا ويمكن كذا ، وينبغي أن تكون على المستوى المطلوب الآن ، يعني لا أستطيع أن أقدرها بالصاع وكذا . قامت قيامة أحد الفقهاء كان هناك ، فجاء في اليوم الثاني وجلس على باب المسجد وقد جاء بمجموعة من الشعير والحنطة وكذا يريد أن يوزع في أمريكا حنطة وشعير ليثبت أن الأمر عملي جدا . الصاع موجود والشعير موجود

، أنا لا أمتنعك من أن تدفع حنطة أو تدفع شعيرا أو زبيب ، افعل ما تشاء ولكن يا أخي كن عاقلا واعرف أن هذا الإسلام قد قدم إلى عقلاء إلى بشر يعقلون يستعملون عقولهم وكذا هل يعقل توزيع حنطة أو شعير على هؤلاء الذين بلا مأوى ، القاعدين حول البيت الأبيض ؟ أنا كنت أرى في الرياض في بلد المسلمين لعبة الحنطة والشعير ، نذهب في ليلة عيد الفطر فنجد شخصا قد وضع أكياس حنطة وكذا فنأتي عليه ، ونقول له عدد عائلتي كذا فيكتل القدر المطلوب ويعطيك إياه ، ثم يقول لك « طيب هاته وأنا أوصلها للفقير ، ويبيع الكيس خمسمائة مرة علينا » . وأنا أعتبر نفسي قد أدبت زكاة الفطر والحمد لله ، وأكون مبسوط . هكذا تؤدي مسألة شكلية تافهة لا قيمة لها لا عند الله ولا عند رسوله ، كسائر الشكليات التي يقوم بها الكثير من المسلمين ، لم يكن غرض الشارع من هذا الأمر هذا الشكل التافه ، أنه تأخذ هذه وتستعملها بهذا الشكل المتحايل . الآن فتح باب في الفقه يسمى «باب الحيل الشرعية» ، فيه مصائب من هذا النوع كثيرة جدا ، كيف يتحايل الكثيرون للخروج من قضايا الزكاة ، كيف يتحايل الكثيرون للخروج من قضايا الطلاق ، كيف يتحايل لكذا ، فمسخنا روح الإسلام ، عقائده وأهدافه ، إلى نوع من الشكليات التي لا قيمة لها ولا أثر كما هو الحال في واقعنا المعاصر . ومن مظاهر هذه الأزمة النظر الجزئي ، استعمال النصوص للشئ ونقيضه أن تروي حديث ويروي الآخر حديث آخر - الذي يحدث الآن في البيئات الجديدة التي نعيش فيها يفرض الكثيرون أذواقهم وكذا يسمون هذا الإسلام ويقدمون لهم ما لديهم من تخلف على أنه الإسلام .

صورة متخلفة جامدة ومتحجرة للإسلام برغم توافر التسهيلات

العلمية في خدمة الاجتهاد :

كلما جاء علينا رمضان في أمريكا أعاني معاناة لا يعلمها إلا الله ، لماذا ؟ لأن الأخوان يقولون بالالتزام الشكلي بنص الحديث النبوي :

فلوهم ووسيلوا وقضوا فطروا الرؤية الشرعية على قبحه ورواية، التهم الامم بالله ليرى قلمه جسد قفحة، اذلى  
 للفرتب لو كلكه قال عين تفلح لجرية فطم يكلا نحل لثوبكم الانضام عملوا كمن انشا الان  
 فجوز كثر ستمسنا الكفلة نيل الشياقية كالتهم كطلل ليللي قلي الحوقية تشو له فليته  
 وكوب انهي ليو الشيو غلاؤضل كل الفمن المسمو سرتظيل المولت ثنفر يحظر خبي العقل موكتيوي  
 للثاين القتل لو هغدة القضاية أوقهذه في الملك كرامت كلكا ريخول شمس والارض وكذا .  
 ومع ذلك يصر هذا الأخ أنه لا يجوز لي إلا أن أراه بالعين المجردة .  
 طيب العزيمة نجلني بيقم للملأصل القرؤ قامت عقول المكه بدية بل الإسلام ليلك فتختبره ثم  
 تقول له : « كيف رأيتة ؟ هل كان الهلال عن يمين الشمس ؛ هل كان  
 عن شولم لظننا ؟ » الاختراكية انما نبتنا شافندسه ليعلمى تلك المصنعة ليقع التاوجسية  
 مضطقة لمتلة المحقولة قبل الإسلام كنانا لثرتك والعمد نلية طائوثة لثو شويظ لنعلي  
 في اعلاهم اعلى أو انلا عمنظ لبقلة لها ووعيلن ذلك وافتعطا تريدا ثل ان اتسكلمين قفلي  
 لاصح لثونر « لروصول كتم ايتنل لوال الصيلاحي اللينيليم ولأعولاقيا يولن لكاله  
 فيلقول المي الراسول صوموا وأفطروا » . هذا تخلف وجمود وتحجر لا يمكن أن  
 يحيا بمثله الناس . هل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقصد هذا  
 السخف الذي يقوم به البعض ويعتبره دين ويعتبره تشريع ؟ لا يمكن .  
 كان عليه الصلاة والسلام يعطي منهجا مناسباً معقولا لأمة لا تكتب ولا  
 تحسب . فقال لهم صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته . المسألة بسيطة جدا ،  
 ربنا فرض عليك الصيام وهو ركن من أركان الإسلام المهمة . أنت غير  
 مكلف بما لا تطيق ، صم لرؤيته وافطر لرؤيته ، ارفع عينك ، رأيت  
 الهلال صم غدا ، رأيت الهلال أفطر . انتهى الموضوع . أعطاك الوسيلة  
 البسيطة التي يستطيعها الإنسان في القرية وفي المجتمع المتقدم لكن لم  
 يعن بهذا أنك تستمر أميا لا تحسب ولا تكتب .

وتفرض تخلفك على الإسلام ، هذا حرام لأن هذه رسالة خاتمة . ربنا  
 سبحانه وتعالى أرادها للدنيا كلها ، أرادها رسالة أخيرة لم يرد لها لك  
 أنت وحدك ، أرادها للدنيا كلها ، أنت وعاء أنت مبلغ أنت حامل إذا  
 كنت تستطيع أن تفهمها إفهمها وإذا لم تكن تستطيع أن تفهمها بلغها  
 لغيرك ويفهمها بالشكل الذي يعينه ربنا سبحانه وتعالى عليه ، لكن لا أن  
 تفرض فهمك لهذه القضايا بهذا الشكل .

## قصور فكر المسلمين المعاصرين وعجز الفقهاء في توجيه العقل

المسلم :

سأل أحدهم شيخا جليلا : «الآن الدار داران ، دار حرب ودار إسلام ، فمن الذين نبدأ بقتالهم الآن ؟ الروس أم الأمريكان أو الصين أو اليابان ... من ؟» فالشيخ حفظه الله استدرج إلى السؤال ، وقال : والله هو المفروض أن نبدأ بالروس لأنهم ملحدون ولأنهم يحاربون المسلمين في أفغانستان ، لكن والله الأمريكان ضررهم أكثر لأنهم ساندوا إسرائيل وكذا على كل تحير الرجل بمن يبدأ ، يبدأ بالروس أو بالأمريكان أو غيرهم . أنت كإنسان مسلم ملابسك التي تلبسها من صناعتهم . أكلك من عندهم ولو منعوا عنك الخبز تموت ، لو الأمريكان قطعوا مساعدات الغذاء عن هذا العالم الإسلامي فثلاثة أرباعه يموت ، الآن تعيش مصر على دجاجهم الفاسد وأغذيتهم ، يجدوا الدجاجة فاسدة من سنتين ومع ذلك عايشين عليها لأنه ما عندهم غيرها . فأنت بهذه الحالة وتفكر في قتال من ينتجون احتياجاتك . يوميا كلما طلعت شمس وغابت يموت في العالم الإسلامي ما لا يقل عن مائة وخمسون شخص من المسلمين من الجوع ، في بنغلاديش ، في الحبشة ، في أفريقيا ، في كذا ، في كذا يموتون جوعا فقط لا بأي سبب آخر ، وليس في الدنيا أحد يموت من الجوع اليوم إلا مسلم ، مع ذلك يفكر عقل السائل بهذه الطريقة .

النعل الذي يلبسه والثوب الذي يلبسه والأكل الذي يأكله من عندهم . وإذا بماذا تقاتلهم ؟ ما هي الأسلحة التي ستستعملها في قتالهم ؟ الأسلحة من صناعتهم ، أحيانا يبيعونك المصنع ويأخذون مسمار لا تعرف أنه يديره ، أحيانا يبيعونك السلاح والعتاد عندهم وأحيانا يبيعونك العتاد بدون سلاح وأنت العوبة بأيديهم . طيب ألم يكن الواجب القول لهذا السائل : يا ابني كيف تسمح لعقلك أن يفكر في هذا السؤال ؟ المفروض بك أن تعد وتربي وتنشأ وتعاد تربيتك وصناعتك من جديد ، لكي تصبح إنسانا تتمتع ببعض القدرات التي تعطيك أهلية التكليف ،

أما وأنت في هذا الحال تعتمد في عيشك كله على غيرك ثم تفكر في تقسيمات دار الحرب ودار الإسلام . هذه تقسيمات فقهاء الأمة يوم كانت الأمة هي الدولة الأولى في العالم ، يوم كان نظام العالم كله له وضع آخر غير هذا الوضع ، وبالتالي هذه التقسيمات تبدو معقولة جدا ، دار عهد ، ودار إسلام ، ودار حرب إلى آخره . لكن الآن في ظل ما نحن فيه كيف تستطيع أن تحدد معالم ما تسميه بدار الإسلام ومعالم ما تسميه بدار الحرب وكذا . وهل ديارنا ديار إسلام ؟ الكثيرون منا هاربون من ديار الإسلام والحمد لله ! أنا واحد هارب من بلدي المسلم الذي كان قاعدة الخلافة لأني لا أعرف أتمتع بأبسط الحريات ، أبسط الحريات التي يتمتع بها إنسان اليوم أنا محروم منها ، لا أستطيع أن أعبر عما أعتقد أو أصلي جماعة بالمسجد . ويقولوا الصلاة لا يمكن تأديتها جماعة الآن في بعض ديار الإسلام ، إذا ما جلس ما يزيد عن ثلاثة أشخاص في مسجد يقرأون القرآن فقط يعاقبون بالإعدام ويعتبرون تنظيم . طيب ، وأنت تأتي تتحدث اليوم بهذا الشكل وتسمي هذه دار إسلام وتسمي هذه دار حرب وتدخل في هذا التفصيل ، لا يا أخي ليس هذا هو العقل الذي يمكن أن يجتهد وليس هذا هو العقل الذي يمكن أن يبني أمة .

### أطروحات تاريخية وعجز فقهي في مواجهة الواقع :

أيضا من أطروحات العقل المعاصر أو المسلم المعاصر ومشاكله مسألة التاريخ ، شيعة وسنة ، وسلفية وصوفية ، ومذاهب إلخ وكذا ، الجهاد الأفغاني (هذه المفخرة العظيمة في هذا العصر والتعبير الرائع عن الإسلام بالمفهوم الجهادي ، بمفهوم تضحية الإنسان المسلم وتقدير روحه من أجل إعلاء كلمة الله) عندما جاء إلى مستوى التنظيمات وبناء الحياة وبناء الدولة ، واجه مشاكل وصراعات فكرية : مثلا هل من حق المرأة أن تتعلم ، أو ليس من حقها ؟ هل فقهاء الحنفية قالوا بهذا الشيء أو لم يقولوا ؟ هل تجوز الانتخابات النيابية أو لا تجوز ؟ هل الشورى تشكل الشيء الفلاني أو لا تشكل ؟ هذه القضايا على هذا العقل الذي

هزم روسيا وقضى على الشيوعية ودمرها ، ثم سلمها لقمة سائغة إلى الغرب وكأنه قال : تفضلوا يا أمريكيان بعقولكم الآن اعملوا ما تشاؤون فيمن كنتم تسمونه الكتلة الشرقية . لقد كان المسلم في الحقيقة بدمائه وقود انهيار الشيوعية لكن من المستثمر ؟ المستثمر صاحب العقل وليس من يناقش هذه القضايا أو هذه المشكلات التاريخية .

### الحضارة الغربية المعاصرة قامت على المنهجية الإسلامية :

والحضارة الغربية إنما بنت نفسها على تلك المنطلقات الأساسية منطلقات المنهجية الإسلامية وتراث تلك الحضارة ، وذلك هو الذي ساعدها على إصلاح منطلقاتها وكان أثره واضحا ، أثر المسلمين في عصر التنوير ، وحركة التنوير والإصلاح الديني والأخلاقي والفكري والعلمي الذي أخذته أوروبا عن أمتنا الإسلامية ، ولما جاس الغربيون أرض الإسلام وفكره فيما تعلمون في الجامعات الإسلامية ومن حكماء الإسلام مثل ابن رشد وابن خلدون وغيرهما ، مما يشهد عليه عصر النهضة وما انطوى عليه ، وبعد أن اشتد عودهم وامتد غرورهم أنكروا على الإسلام والمسلمين هذا ، وعلى الحضارة الإسلامية تلك المنطلقات ، وقالوا إننا قد أخذنا هذا كله من الحضارة اليونانية والإغريقية ، لانزال هذه المنطلقات سليمة قائمة ، ويمكن للعقل المسلم أن يعود إليها وأن يمارسها إذا عاد إليه تألقه وعاد إلى الاهتداء بالكتاب والسنة . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وشكرا .

كنت قد حاولت أن أبين في آخر ما تحدثت به أن المنطلقات الأساسية التي تقوم عليها المنهجية الإسلامية ، هي منطلقات لانزال قادرة على العمل ، ولانزال قادرة على القيام بمهمة التجديد الحضاري لحياة هذه الأمة ، بل إن الحضارة المعاصرة إنما بنيت على بعض منطلقات هذه المنهجية التي استفادها قادة التنوير ومن سبقهم في أوروبا من علماء المسلمين واحتكاكهم بالتراث الإسلامي من خلال الحروب الصليبية بالنسبة لبعض جوانب هذا التراث ، ومن خلال الاحتكاك بمدارس الأندلس وتأثير

قرطبة وغيرها من ناحية أخرى وأن هذا التراث وهذه المنطلقات قد شكلت أساسا متينا لهذه الحضارة يشهد عليه فكر النهضة الأوروبية ، يشهد عليه العقل التجريبي العلمي الذي قامت على أساس منه الحضارة الإسلامية الذي كان القياس الأصولي هو الموحى به ، والباني لجذوره ، لأن القياس الأصولي في حقيقته ذو جانب تجريبي كما يمكن أن يظهر من تحليلنا له أو معرفتنا منهجيته وأن معاناة الغرب وأمراضه الاجتماعية المعاصرة في مجال الفرد والأسرة ، إنما ترجع إلى تخلي هذه الحضارة الغربية المعاصرة عن تلك المنطلقات الأساسية التي استفادتها من المنهجية الإسلامية ومن مفاهيم الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي الذي اشتملت عليه حضارتنا ، ولكن الغرور الذي أصاب العقل الغربي في عصوره الأخيرة جعله يتعالى على ذلك المسلم المتخلف وينكر استفادة حضارته منه بأي شكل من الأشكال ، ويعتبر أن حضارته إنما قامت بناء على فضائل ذاتية تابعة من تراثه الوثني الإغريقي ، ومن عقله المتميز على بقية عقول الأمم ، وإلى ذلك التراث الخرافي المسيحي الوسيط بعيدا عن الحضارة الإسلامية وقيمها ومنطلقاتها : ولما ابتعد عن تلك الأسس عن تلك القيم عن تلك المنطلقات ، أصاب حياته الاجتماعية هذا الذي نراه ، هذه الأمراض المنتشرة التي لا يستطيع أن يوقفها في مجال الفرد وفي مجال الأسرة وفي مجال طغيان القيم بعضها على بعض لقيم الحرية وسواها ، وانهايار الالتزام الأخلاقي الذي يعاني منه في سائر ميادين العلم والتقنية والسياسة ، كل تلك الأمراض التي الغرب تحت ضغطها في الوقت الحاضر إنما هي ذات صلة بتخليه عن المنطلقات الأساسية لحضارته التي استفادها ، ومحاولته ربط تلك الحضارة بمنطلقات تاريخه الوثني الإغريقي الخرافي في كثير من الأمور ، ومع ما عليه الغرب اليوم ومع ما عليه حال العالم اليوم ، لم يعد إنسان هذا العصر ، ولم يعد أمام الأمة الإسلامية ، بل أمام العالم كله ، لم يعد من وسيلة للهداية ، من وسيلة للخروج من هذه الأزمة الطاحنة إلا الإسلام ، ومنطلقاته الأساسية ومنهجيته الفاضلة ، ليعيد ركب الأمة والإنسانية من جديد إلى الصراط .

هكذا دبت وتعددت الانقسامات بين الفقهاء من ناحية ، إضافة إلى

انفصامهم بصفة عامة عن السلطة وكثرت الآراء والاجتهادات بين الفقهاء ،  
طريقة عرض القضايا الفقهية في تلك الفترة كان الفقيه يجلس في  
المسجد ويعتمد على سارية من سواري المسجد ويأتي إليه الطلاب من كل  
جانب ليستمعوا إلى فتاواه ويسيرون بها كما يقال تسير بها الركبان  
وتصل إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي بالسرعة المناسبة في ذلك  
الوقت وتحدث ما تحدثه من آثار .

فحتى على سبيل المثال الإمام مالك عليه رحمة الله أفتى فتوى فقهية  
بعدم وقوع طلاق المكره وأن الإنسان إذا أكره على الطلاق فلا يقع طلاق  
المكره ، وبطبيعة الحال الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : «رفع  
القلم عن ثلاث عن النائم وعن الناسي وعن المكره» ، والمفروض الإكراه  
معروف أنه من الأمور التي لا يترتب عليها حكم ما أكره عليه الإنسان .  
والقرآن نص القرآن قبل هذا واضح «إلا من أكره وقلبه مطمئن للإيمان»  
، فرغم هذا ضرب الإمام مالك على فتواه هذه حتى شلت ذراعه . لماذا ؟  
لأن الفتوى حملت معنى سياسيا ، ربما كان الإمام يقصده أو لم يكن  
يقصده ، لا أحد يدري الآن ، لكنه حملت هذه الفتوى - وهي فتوى  
تتعلق بالطلاق وفي مجاله - حملت معنى سياسيا ، واعتبر العباسيون لأنه  
- كان الصراع مع المنصور أن هذه الفتوى كانت تستهدف ما ابتدعه هو  
من إدخال أيمان الطلاق في البيعة ، وأنه حينما بدأ الخلفاء يأخذون  
البيعة من الناس يأخذونها حلف بالله وعهد وكذا مع الطلاق . يعني يقول  
بأن زوجته طالق أو أزواجه طالقات فيما إذا خلع ربقة الطاعة من عنقه .  
فقبل للخليفة أن الإمام مالك يقصد بطلاق المكره هذا ، وأن معنى  
الفتوى لها مغزى سياسي ، ربما يكون ربما لا يكون ، ولكن هذا فقط  
نموذج يوضح لنا إلى أين بلغت عملية الصراع .

### الصراع على المشروعية وبداية التقنين :

فإذا أصبح هناك صراع على المشروعية أو على الشرعية بين الأئمة  
وبين الفقهاء . نجد أن أحد خلفاء بني العباس ، أبو جعفر المنصور ،

انفصامهم بصفة عامة عن السلطة وكثرت الآراء والاجتهادات بين الفقهاء ،  
طريقة عرض القضايا الفقهية في تلك الفترة كان الفقيه يجلس في  
المسجد ويعتمد على سارية من سواري المسجد ويأتي إليه الطلاب من كل  
جانب ليستمعوا إلى فتاواه ويسيرون بها كما يقال تسير بها الركبان  
وتصل إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي بالسرعة المناسبة في ذلك  
الوقت وتحدث ما تحدثه من آثار .

فحتى على سبيل المثال الإمام مالك عليه رحمة الله أفتى فتوى فقهية  
بعدم وقوع طلاق المكره وأن الإنسان إذا أكره على الطلاق فلا يقع طلاق  
المكره ، وبطبيعة الحال الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : «رفع  
القلم عن ثلاث عن النائم وعن الناسي وعن المكره» ، والمفروض الإكراه  
معروف أنه من الأمور التي لا يترتب عليها حكم ما أكره عليه الإنسان .  
والقرآن نص القرآن قبل هذا واضح «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»  
، فرغم هذا ضرب الإمام مالك على فتواه هذه حتى شلت ذراعه . لماذا ؟  
لأن الفتوى حملت معنى سياسيا ، ربما كان الإمام يقصده أو لم يكن  
يقصده ، لا أحد يدري الآن ، لكنه حملت هذه الفتوى - وهي فتوى  
تتعلق بالطلاق وفي مجاله - حملت معنى سياسيا ، واعتبر العباسيون لأنه  
- كان الصراع مع المنصور أن هذه الفتوى كانت تستهدف ما ابتدعه هو  
من إدخال أيمان الطلاق في البيعة ، وأنه حينما بدأ الخلفاء يأخذون  
البيعة من الناس يأخذونها حلف بالله وعهد وكذا مع الطلاق . يعني يقول  
بأن زوجته طالق أو أزواجه طالقات فيما إذا خلع ربة الطاعة من عنقه .  
ف قيل للخليفة أن الإمام مالك يقصد بطلاق المكره هذا ، وأن معنى  
الفتوى لها مغزى سياسي ، ربما يكون ربما لا يكون ، ولكن هذا فقط  
نموذج يوضح لنا إلى أين بلغت عملية الصراع .

### الصراع على المشروعية وبداية التقنين :

فإذا أصبح هناك صراع على المشروعية أو على الشرعية بين الأئمة  
وبين الفقهاء . نجد أن أحد خلفاء بني العباس ، أبو جعفر المنصور ،

يستشير بن المقفع في هذا . وابن المقفع أديب فارسي دخل الإسلام يشكك لبعض في إسلامه ، ولكنه في أي الأحوال إنما جاء من خلفية حضارية أخرى . فاقترح على الخليفة المنصور التقنين ، ولم تكن فكرة التقنين معروفة لدى المسلمين آنذاك وكان الفقيه كما قلنا يستند إلى سارية من سواري المسجد ويقول ما شاء ويفتي بما يريد . وقد يقول ما هو مقبول وما هو مرفوض ، ولكنها حلقات علم وبحث يجري العقل فيها مجراه دون قيود . فإذا بالخليفة المنصور يحاول أن يقنع الإمام مالك نفسه بأن يتبنى فقهه من خلال الموطأ وأن يلغي ما عداه . ويحاول بعد ذلك هارون الرشيد المحاولة نفسها ، ثم يجري شبه اتفاق ضمني بين هارون الرشيد وبين القاضي أبي يوسف (الإمام المعروف من أئمة الحنفية وتلميذ أبي حنيفة الأكبر) على تبني الفقه الحنفي ، ولو بشكل غير معلن ، من خلال أن القضاة أصبحوا لا يعينون إلا من حملة هذا المذهب ومن حملة هذا الفقه ونحوه . لكن هذا كله لم يوقف ما يمكن أن يسمى بالفوضى الفكرية الناجمة عن الخلط بين ميادين البحث العلمي وبين قضايا التنفيذ . فالسياسات لا يمكن أن تنفذ بعشرة آراء يعني إذا جاءني متقاضيان مختلفان في مسألة من المسائل وطلبا الحسم في القضية التي بينهما لا أستطيع أن أقول لهما يمكن أن تحسم قضيتكما على عشرة أوجه فاختراروا من هذه الأوجه ما يمكن ، ولكن يجب أن أتبنى أنا شيئا معيناً أو رأياً معيناً وأقول هذا لك وهذا لذلك درنا للخصومة وإنهاء لمشارت الجدل . فإذا بلغنا العهد العباسي نجد أن فكرة التقنين قد ظهرت لأخذ المشروعية من الفقهاء بصفة عامة ودعم الفقه الذي يتبناه السلطان من خلال عملية التقنين ، ولتبقى الآراء الأخرى آراء غير مشروعة أو آراء لا يؤخذ بها ، كما حدث بعد ذلك وتطور الحال في العهد العثماني حينما أصبح ما يؤخذ من فقه أبي حنيفة وحده يعتبر هو الأمر المقبول وهو الذي تجري عليه الدولة ، ما يؤخذ من الفقهاء الثلاثة الآخرين من فقهاء للسنة لا يعتبر ممنوعاً لكن لا يؤخذ به ولا ينفذ ولا تمنع دراسته . أما ما بقي بعد ذلك فحتى لو أوقفت لهم أوقاف أو شئ فيحرم هؤلاء عادة من أي شئ لأن فقههم لا يعتد به ولا يعترف به بحال من الأحوال . فهنا برصد كل هذه النقاط ، أنا لا أحاول أن أدخل ف

تفاصيل ولكن أحاول فقط أن أثير معالم وقضايا ، برصد هذه النقاط نستطيع أن نتبين أن البيجة النفسية والعقلية التي صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت بارزة في الصدر الأول قد تغيرت تماما وتحولت إلى بيئة أخرى وأضافت إليها ألوان المشكلات الفكرية التي طرأت نتيجة هذا كمشكلة الصراع بين العقل والنقل ، وهل يقدم العقل على النقل عند الاختلاف أو يقدم النقل أو نحو ذلك ، وقضية منهجية النقل ومنهجية فهمه وقضية التأويل والتفسير ونحو ذلك من مشكلات فكرية عويصة كلها أسهمت في عملية تغيير البيئة العقلية والنفسية للأمة آنذاك .